دورُ التَّزكيةِ فى التَعياش

بقلم

د. زين بن محمد بن حسين العيدروس

عفا الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

دور التزكية في التعايش [١]

الحمدُ للهِ الذِي خلَقَ النَّفْسَ وَسَوَّاهَا، وَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، وجعلَ الفلاحَ لِمَنْ أصلَحَهَا وزَكَّاهَا، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَى سيدِنَا محمدٍ أَزْكَى الناسِ نفسًا ، وأصفاهُمْ قلبًا، وأحكَمُهُمْ عقلاً، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ، أما بعد:

مفهوم التزكية والتعايش

أولاً: التزكية لغة واصطلاحاً:

التزكية لغة : التزكية مصدر من الفعل الرباعي المضعّف المتعدي، زَكَّى يزكي تزكيةً، والزكاء: النماء والطهارة، قال الفيومي: زكى الرجل يزكو: إذا صلح، وزكّيته نسبته إلى الزكاء، وهو الصلاح، والرجل زكي، والجمع أزكياء [٢].

قال الراغب الاصبهاني: تزكية النّفس أي: تنميتُها بالخيرات والبركات أوهما جميعاً، فإن الخيرين موجودان فيها . وبزكاء النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة ، وفي الآخرة الأجر والمثوبة . وهو أن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره[٣].

التزكية اصطلاحاً: التنمية والتطهير والسُمو بالنفس إلى بارئها، وإبعادها عن الشر، والمحافظة على فِطرتها [٤].

وقد وردت التزكية في القران الكريم من حيث نسبتها إلى أربع جهات : تارة إلى الله تعالى بمعنى الهداية والتوفيق لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة نحو قوله سبحانه: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [٥] ، وتارة نُسِبت التزكية إلى الرسول ﷺ ؛ لأنه المُربي والمزكي لأُمته، والمرشد إلى

---

(١) ألقيتُ هذا الموضوع في محاضرة بدورة التعايش السلمي التي نظمتها مؤسسة طرائق الخيرات للتنمية المنعقدة من ٢١ - إلى ٢٣ أغسطس ٢٠١٤م بمدينة المكلا. حضرموت .

(٢) انظر: المصباح المنير١/٢٥٤، مادة زكى.

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن ٢١٣.

(٤) انظر: أصول التربية الإسلامية للنحلاوي١٥٥.

(٥) سورة النساء: ٤٩ .

طريق الخير، قال الله تعالى :﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ ﴾[١] ، وتارة نُسبت التزكية إلى العبد ذلك لكونه مكتسباً لذلك ومنه قوله سبحانه: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾[٢]، وتارة نُسبت التزكية إلى العبادة التي هي آلة في ذلك ومنه قوله تعالى: ﴿ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴾[٣] ،[٤].

مفهوم التعايش لغة واصطلاحاً:

التعـايش لغـة: مـن عَايَشَـه: عـاش معـهُ، عيَّشـه: أعاشـه، وتعَايشُـوا: عاشـوا علـى الأُلفـة والمودَّة، ومنه التعايش السِّلمي [٥].

التعـايش اصـطلاحا: يقصـد بالتعـايش أن يعـيش الرجـل مـع الخَلـق، فيَسـلم مـنهم ويَنْصـفهم من نفسه، فيَلقى الله عَزَّ وجَلَّ، وقد أدى إليهم حقوقهم، وسلِم بدينه بين ظهرانيهم[٦].

دور التزكية وأهميتها في التعايش

قال الله جلّ ذكره : ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[٧]، وقال تعالى : ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾[٨]، وقال سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾[٩]، قال الحافظ ابن كثير . رحمه الله . : (يذّكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد

---

(١) سورة البقرة: ١٥١ .

(٢) سورة الشمس: ٩.

(٣) سورة مريم: ١٣.

(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن ٢١٣، ٢١٤.

(٥) انظر: المعجم الوسيط ٦٦٣ مادة (عيش)

(٦) انظر: موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة١٤٤ صادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر.

(٧)سورة البقرة: ١٢٩.

(٨) سورة آل عمران: ١٦٤.

(٩) سورة الجمعة: ٢.

ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات الله مُبينات، ويزكيهم أي: يُطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويُخرجهم من الظلمات إلى النور، ويُعلّمهم الكتاب وهو القرآن، والحكمة وهي: السنة ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، فكانوا في الجاهلية الجهلاء يَسْفهون بالقول الفِرى، فانتقلوا ببركة رسالته ويُمنِ سفارته إلى حال الأولياء وسجايا العلماء فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾)[1].

ومن خلال الآيات الثلاث السابقة نجد أن التزكية تُمثّل الثلث من جملة مقاصد البعثة المحمدية: فثلث للتزكية، وثلث لتلاوة الآيات، وثلث لتعليم الكتاب والحِكمة.

والعلماء والدعاة هم ورّاث النبي ﷺ عليهم مسؤولية القيام بهذه الجهات الثلاث، وقبل القيام بها لابد من التحقق بها علماً وعملاً وسلوكاً، ففاقد الشيء لا يُعطي.

ونفسُ الإنسانِ تتقلّبُ بينَ الخيرِ والشرِّ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾[2]، وهيَ بطبيعَتِهَا تجنحُ إلَى الغوايةِ وتميلُ عَنِ الْهِدَايةِ، قالَ تعالَى:﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي** ﴾[3] ، لذَا فالحاجةُ إلَى تعاهُدِ إصلاحِهَا شديدةٌ، والعنايةُ بأمرِهَا أكيدَةٌ، وإصلاحُهَا يكونُ بالتزكيةِ، قالَ سبحانَهُ:﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** ﴾[4] .

والتزكيةُ هيَ تطهيرُ النفْسِ عَنِ الْمَيْلِ إلَى مَا حرَّمَ اللهُ تعالَى ورسولُهُ ﷺ والانحيازُ إلَى مَا أمرَ اللهُ تعالَى بهِ ورسولُهُ ﷺ، قالَ ﷺ :(**ثَلاَثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ طَعْمَ الإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ فَإِنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ... وَزَكَّى عَبْدٌ نَفْسَهُ**» فَقَالَ رَجُلٌ: مَا تَزْكِيَةُ الْمَرْءِ نَفْسَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ :(**يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ مَعَهُ حَيْثُمَا كَانَ**) [5].

---

(1) تفسير القران العظيم١/ ١٩٧.

(٢) الشمس : ٧ – ٨.

(٣) يوسف : ٥٣.

(٤) الشمس: ٩ – ١٠.

(٥) البيهقي في السنن الكبرى ٤/٩٦.

ولاَ بُدَّ أَنْ يلجأَ العبدُ إِلَى اللهِ تعالَى ويسألَهُ الْعَوْنَ علَى إصلاحِ نفسِهِ وتزكيتِهَا، فيَدعُوَ بدعاءِ رسولِ اللهِ ﷺ:(**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا**)[1].

أسس التزكية ودورها في التعايش

يمكن أن نذكر أهم أسس التزكية، ودورها في التعايش مع ذكر نماذج من تعامل السلف الصالح فيما بينهم، وكانت سبباً في التعايش المملوء بالمحبة والإخاء، والتعاون على البر والتقوى فيما يأتي:

أولاً : الإخلاص في العلم والعمل

لا خلاص إلا بالإخلاص، فمَن أخلص القصد لله تعالى وصل للمراد عاجلاً أم آجلاً، وهذه سنة الله تعالى في خلقه، وبه يهتدي الباحث للصواب، والإخلاص في العلم والعمل والوجهة قال تعالى:﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[2] ، وقد مرّ عمر ﷺ بمعاذ بن جبل ﷺ فقال عمر ﷺ: ما قِوام هذه الأمة، قال معاذ: ثلاث وهن المنجيات: الإخلاص وهي الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها، والصلاة وهي الملة، والطاعة وهي العصمة، فقال عمر: صدقت[3].

ثانياً : التمتع بالأخلاق النبوية مع أطياف المجتمع كافة

من أهم عوامل نجاح الرسول ﷺ في مُهمته النبيلة وهي جمع القلوب إلى الله عز وجل أنه كان نموذجاً يحتذى به في التعامل والخُلق حتى مع خصمائه، ولذلك حكّمته قريش عليها في وضع الحجر الأسو، وقالوا: هذا الأمين ارتضيناه حَكماً.

فالداعية مطالبٌ بمحاسبة نفسه قبل محاسبة غيره.. وبتربية ذاته قبل قيامه بتربية ذوات الآخرين.. وبالإحسان إلى نفسه قبل مبادرته بالإحسان للآخرين.. وهذا مناط وصية على بن أبي طالب ﷺ حيث يقول: من نصّب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل أن يبدأ بتعليم غيره.. وليكن تهذيبه بسيرته قبل تهذيبه بلسانه. ومعلّم نفسه ومهذبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومهذبهم [4].

---

(١) رواه مسلم برقم ٢٧٢٢ .

(٢) سورة الزمر: ٣.

(٣) رواه ابن جرير الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن١٨/ ٤٩٣.

(٤) انظر: قوارب النجاة في حياة الدعاة٣٦.

قال يونس الصَّدَفي ـ أحد تلامذة الإمام الشافعي ـ رحمهما الله ـ ما رأيتُ أعقل من الشافعي ناظرتُه يوماً في مسألة ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى ألا يَستقيم أن نكونَ إخواناً وإن لم نتفق في مسألة. قلتُ ـ القائل الإمام الذهبي ـ هذا يدلُّ على كمال عقل هذا الامام وَفِقْه نفسه فما زال النُظراء يختلفون [1].

ثالثاً : التجرّد عن الهوى والتبعيّة الممقُوتة

أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس من اتباع الهوى، فمَن خالف هواه أراح قلبه وبدنه وجوارحه فاستراح وأراح، قال أبو بكر الورّاق: إذا غلب الهوى أظلم القلب، وإذا أظلم ضاق الصدر، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق، وإذا ساء الخُلق أبغضه الخلق وأبغضهم، فانظر ماذا يتولّد من التباغض من الشر والعداوة وترك الحقوق وغيرها [2]. وقال الشعبي: احفظ عني ثلاثاً لها شأن: إذا سألت عن مسئلة فأجبت فيها فلا تتبع مسألتك، أرأيت فإن الله يقول في كتابه: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [3]، حتى فرغ من الآية، والثانية إذا سئلت عن مسئلة، فلا تقس شيئاً بشيء فربما حرمت حلالاً أو حللت حراماً، والثالثة إذا سئلت عمّا لا تعلم فقل لا أعلم وأنا شريكك [4].

ولما تجرد السلف الصالح عن آفة الهوى لم يعتب بعضهم على بعض إذا اختلفوا في الاجتهاد، قال القاضي يحيى بن سعيد الأنصاري التابعي ـ رحمه الله ـ (أهلُ العلم أهل توسِعة، وما بَرِح المفتون يختلِفون فيحلِّلُ هذا ويحرِّم هذا، فلا يعيبُ هذا على هذا، ولا هذا على هذا)[5].

وخالف أرسطو شيخه أفلاطون، فقيل له ذلك ، فقال: أستاذي صديقي، والحقُّ صديقي، فإذا تنازعا، فالحق أولى بالصداقة، قال العلامة أبو زهرة بعد نقله هذا : فهذا المعنى بعينه هو الذي حمل الشافعي على إظهار مخالفة مالك ـ رحمهما الله تعالى ـ [6].

رابعاً: الانصاف والعدل حتى مع نفسه ومنهجه

---

(1) سير أعلام النبلاء للذهبي ١٠/١٦.

(2)انظر: روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم ٤٨٢.

(٣) سورة الفرقان: ٤٣ .

(4)جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر٢/ ١٤٧.

(5) تذكرة الحفاظ للذهبي١/١٣٩.

(٦) الإمام الشافعي لأبي زهرة ٣١.

أمرت الشريعة الغرّاء بالإنصافِ والعدلِ في القول والحُكم، حتى ولو اقتضى الإنصافُ مدحاً لأعدائِكَ أو قدحاً في أحبائِكَ، وهذه منزلة في الأخلاق نفيسة عزيزة، نجد الأمر بها في عدد من آي القرآن الحكيم، كقوله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَو الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ** ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿ **وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى** ﴾[2].

وقد سبّب غياب هذا الخُلُقِ عن الساحة الإسلامية أحكاماً جائرة، وجُروحاً غائرةً وإجحافاً في المعاملةِ، وعداواتٍ مُستحكمة بين الناس، بسبب الولاء لهذه الجماعةِ ضدَّ تلك، ولهذا الحزب ضد ذاك، ولهذه الدولة ضد تلك الدولة، وتُعَمَّمُ الأحكام ويذهب الصالحُ بالطالحِ، ويُسَوَّى بين الجميع في العقوبةِ، وتُغمَطُ الحسناتُ، وتبرزُ وتُضَخَّمُ السيئاتُ، ولا يرى الخصمُ في خصمِهِ إلا الشرَّ، ويبالغُ المتخاصمون في ذلك، ويستبيحُ بعضُهُمْ دماءَ بعضٍ وأموالهم، وما ذاك إلا لغيابِ الإنصاف والعدل. قَالَ عَمَّارٌ ﷺ: (ثَلاَثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الإِيمَانَ: الإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلاَمِ لِلْعَالَمِ، وَالإِنْفَاقُ مِنَ الإِقْتَارِ)[3]، قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ بعد قول عمار ﷺ: إنها تتضمن رفع التقاطع والتهاجر والشحناء وفساد ذات البين التي هي الحالقة، وأن سلامه لله لا يتبع فيه هواه ولا يخص أصحابه وأحبابه به[4]. أقول: وإذا كانت هذه الثلاث سبباً لرفع ما ذكره النووي حصل التعايش المنشود.

وكان الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ يقول: ما ناظرتُ أحدًا فأحببت أن يخطئ، وما ناظرتُ أحدًا فباليت أظهرَ الحقُّ عَلَى لسانه أو عَلَى لساني؛ لأنّ تناظرهم كان لظهور أمر الله ورسوله، لا لظهور نفوسهم ولا الانتصار لها، وكذلك المشايخ والعارفون كانوا يوصون بقبول الحق من كل من قال الحق صغيراً أو كبيراً، وينقادون لقوله.

قيل لحاتم الأصم: أنت رجل أعجمي لا تُفصح، وما ناظرتَ أحدًا إلا قطعته، فبأي شيء تغلِب خصمك؟ قال: بثلاث: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ لساني عنه أن

---

(١) سورة النساء ١٣٥.

(٢) سورة الأنعام ١٥٢.

(٣) ذكره البخاري في صحيحه معلقاً ك: الإيمان، باب: إفشاء السلام من الإسلام، ورواه ابن أبي شيبة بسنده موصولاً في مصنفه٦/١٧٢.

(٤) شرح صحيح مسلم٢/ ٣٦.

أقول ما يسوءه. فذكر ذلك للإمام أحمد، فَقَالَ: ما كان أعقله من رجل [1].

وقد رجعَ العلامة الشوكاني عن ذمه لبعض أهل العلم الذين اشتهروا بالصلاح بعد أن حكم بكفرهم وذمّهم، ويُعدُّ هذا قمّة الرجوع إلى الحق، وسلوك طريق العدل والإنصاف، فقد ذكر عند ترجمته لأحد تلاميذه القاسم بن أحمد بن عبد الله بن القاسم أنه كتب إليه قصيدة يهجوا ويذم هؤلاء المشتهر صلاحهم، ثم قال الشوكاني بعد قصيدته مبيّناً منهج العلماء الربانيين الذي أمَّه خلقٌ كثير كلاماً حسناً: (**وقد أوضحت في تلك الرسالة حال كل واحد من هؤلاء وأوردت نصوص كتبهم وبينتُ أقوال العلماء في شأنهم، وكان تحرير هذا الجواب في عنفوان الشباب وأنا الآن أتوقف في حال هؤلاء وأتبرأ من كل ما كان من أقوالهم وأفعالهم مخالفاً لهذه الشريعة البيضاء الواضحة التي ليلها كنهارها ولم يتعبّدني الله بتكفير من صار في ظاهر أمره من أهل الإسلام....** ثم قال بعد كلام طويل ماتع: **وفي ذنوبنا التي قد اثقلت ظهورنا لقلوبنا أعظم شغلة وطوبى لمن شغلته عيوبه ومن حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه،** فالراحلة التي قد حملَتْ مالا تكاد تنوءُ به إذا وضع عليها زيادة عليه انقطع ظهرها، وقعدت على الطريق قبل وصول المنزل وبلا شك أن الوثوب على ثلب أعراض المشكوك في إسلامهم فضلاً عن المقطوع بإسلامهم جراءة غير محمودة....)[2].

خامساً: حسن الظن

حسن الظن طريق قوي لجمع القلوب، وقد نهى الله تعالى عن إشغال القلب بالظن فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[3]، قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ :(فَدَلَّ سِيَاقُ الْآيَةِ عَلَى الْأَمْرِ بِصَوْنِ عِرْضِ الْمُسْلِمِ غَايَةَ الصِّيَانَةِ لِتَقَدُّمِ النَّهْيِ عَنِ الْخَوْضِ فِيهِ بِالظَّنِّ، فَإِنْ قَالَ الظَّانُّ: أَبْحَثُ لِأَتَحَقَّقَ قِيلَ لَهُ وَلَا تجسسوا فَإِنْ قَالَ: تَحَقَّقْتُ مِنْ غَيْرِ تَجَسُّسٍ قِيلَ لَهُ: وَلَا يغتب بَعْضكُم بَعْضًا)[4]. وسُوء الظن يُعكّر صفو التعايش

---

(1) انظر: الفرق بين النصيحة والتعيير لابن رجب الحنبلي ضمن مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي ١/ ٢٤٦.

(2) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ٢/٣٢ ـ ٣٩، وانظر للموضوع بطوله فإنه مفيد في بابه.

(3) سورة الحجرات: ١٢.

(4) فتح الباري ١٠/ ٤٨١.

بين أفراد المسلمين عموماً وبين المشتغلين في حقل الدعوة الإسلامية، ويُوغر القلوب ويفرز لهجة جافة في الخطاب تجاه الآخرين. قال بعضهم أبياتاً طريفة ترشد لحسن الظن :

رأى المجنونُ في البيداء كلباً فجرَّ له من الإحسان ذيلا

فلامـُوه لذاك وعـــنّفوه وقالوا لِم أنلتَ الكلب نيلا

فقال دعـــوا المـلامة إن عيني رأتْه مرةً في حي ليلى[1]

من نماذج الرجوع إلى الصواب عند تحققه، وذلك بعد عدم سلوك مسلك حسن الظن بأهل العلم، قال عبد الله بن المبارك: قدمتُ الشام على الأوزاعي، فرأيته ببيروت فقال لي: يا خرسانيُّ مَن المبتدعُ الذي خرج بالكوفة يُكنى أبا حنيفة؟، ثم قال ابن المبارك: ثم التقينا بمكة، فرأيت الأوزاعي يجاري أبا حيفة في تلك المسائل، والإمام يكشف له بأكثر مما كتب عنه، فلما افترقنا قلت للأوزاعي: كيف رأيته؟ قال: غَبَطتُ الرجل لكثرة علمه ووفور عقله، وأستغفر الله تعالى، لقد كنت في غلط ظاهر، الزم الرجل فإنه بخلاف ما بلغني عنه)[2].

سادساً: المحبة للخلق ورحمتهم

المحبّة والرحمة والعدل من أسباب نظام أمور النّاس، وطريقٌ مهمٌ لتعاونهم وتفاهمهم، فإذا أحب المسلم أخاه حصلت الألفة والرحمة، فإن اللّه قد مدح أصحاب النبي ﷺ بالتراحم فيما بينهم فقال الله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[3]، وكانوا رحماء على المسلمين. وقال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[4]، وقوله سبحانه: (وَلَا تَفَرَّقُوا) حثٌّ على الألفة والاجتماع، الذي هو نِظام الإيمان واستقامة أمور العالَم، وقد فُضّل المحبة والألفة على الإنصاف والعدالة، لأنه يُحتاج إلى الإنصاف حيث تفقد المحبة. ولصدق محبة الأب للابن صار مؤتمناً على ماله، والألفة أحد ما شرّف الله به الشريعة الإسلامية. ومن نماذج التسامح من أجل تأليف القلوب في مسألة الجهر بالبسملة في الصلاة

---

(1) انظر: فيض القدير للمناوي٢/ ٤٤٧.

(2) انظر: أوجز المسالك إلى شرح موطأ مالك للكاندهلوي١/٨٨ .٨٩، نقلاً عن أدب الاختلاف لعوامة٧١.

(3) سورة الفتح: ٢٩.

(4) سورة آل عمران: ١٠٣.

والإسرار بها، قال العلامة ابن تيمية . رحمه الله . :(فقهاء الحديث مع فقهاء أهل الرأى يقرؤونها سرًّا كما نقل عن جماهير الصحابة مع أن أحمد يستعمل ما روى عن الصحابة في هذا الباب فيستحب الجهر بها لمصلحة راجحة حتى أنه نصَّ على أن من صلى بالمدينة يجهر بها، فقال بعض أصحابه: لأنهم كانوا ينكرون على من يجهر بها، **ويستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف القلوب بترك هذه المستحبات، لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة** فعل مثل هذا كما ترك النبي ﷺ تغيير بناء البيت لما في إبقائه من تأليف القلوب، وكما أنكر ابن مسعود على عثمان إتمام الصلاة في السفر ثم صلى خلفه متماً، وقال: الخلاف شر)[1] .

الخاتمة

وجّه العلامة أبو بكر بن عبد الرحمن بن شهاب (ت ١٣٤١هـ) قصيدةً إلى أعضاء ندوة العلماء بالهند سنة ١٣٢١هـ وهذه القصيدة تُعطينا صورة صادقة لما كان يقوم به الدعاة إلى الألفة والتعايش في العصر الماضي من أمثال هذا الشاعر والسيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وفي عصرنا الحاضر أيضاً لا يزال كثير من علماء المسلمين يقومون بها ونسأل الله لهم التوفيق. قال ابن شهاب رحمه الله:

كَلِمٌ يُقدِّمها المسيءُ الجـانِي ... لِذوي العمائمِ لا ذَوي التِّيجانِ

نفثاتُ مصدورٍ إلى مَنْ هُم بِها ... أَدرى وأَحرى مِنـــهُ بالتبيـانِ

هَبُّوا وأَمرُ الكلِّ شورى بينَهُم ... والرأيُ قَبْلَ شجاعةِ الشجعانِ

نَهضوا لِنَفعِ المسلمينَ بنشرِها ... عنهُم بصدِّ طوارقِ الحدثانِ ثمَّ قال:

إنَّ افتراقَ المسلمينَ أَذاقَهُم ... ضَيمَ الهضيمةِ بعدَ عظمِ الشانِ

وَهَنَتْ عزائمُنا وأَصبحَ هازئاً ... بِحمولنا الوثـــنيُّ والنَّـــصراني

فعلامَ فُرقتُنا التي أَلقتْ بِنا ... في هوَّةِ الإهمـــالِ الخـــذلانِ

ولِمَ التنافرُ والتباغضُ بينَنا ... والحقـــدُ وهيَ مدارِكُ النقصانِ

ها كلُّ طائفةٍ مِنَ الإسلامِ مُذْ ... عِنَّةٌ بوحدةِ فاطرِ الأَكوانِ

وبأَنَّ سيِّدنا الحبيبَ محمَّداً ... عبدُ الإلهِ رسولُه العدناني

وإمامُ كلٍّ منهمُ في دِينِهِ ... أَخذاً وردّاً مُحكَمُ القرآنِ

---

(١) مجموع الفتاوى٢٢/٧٠٤.

فإلهنا ونبيُّنا وكتابُنا ... لَمْ يَتصفْ بالخلفِ فيها اثنانِ

والكعبةُ البيتُ الحرامُ يَؤمُّها ... قاصي الحجيج لِنُسكهِ والداني

وصلاةُ كلٍّ شَطْرَها زَكاتُهُ ... حتمٌ وصومُ الفَرْضِ مِنْ رمضانِ

أفبَعدَ هذا الاتفاقِ يُصيبُنا ... نزغٌ لِيفتننا مِنَ الشيطانِ

وإنِ اختلفنا في الفروعِ فذاكَ عَنْ ... خيرِ البريَّةِ رحمةُ المنَّانِ

وحديثُ تفترقُ النصارى واليهودُ ... وأُمَّتي فرقاً روى الطبراني

لكنْ زيادةُ كلّها في النارِ ... إلاَّ فرقةً لَمْ تَحلْ عَنْ طعَّانِ

بل كلُّهم في جنى وُعدوا بها ... بالنصِّ في آيٍ مِنَ القرآنِ

وكذا أَحاديثُ الرسولِ تظافرتْ ... أَنَّ الموَحِّدَ في حِمى الرحمنِ

وإذا أَردتَ بيانَ ما أَوردتُهُ ... فانظرْ فتاوى الحافظِ الشوكاني

فلقدْ أَتى فيها بِما يَشفي الغليل ... من الدليلِ وساطعِ البرهانِ

وأفادَ فيها ما يُلاشي بيننا ... لَحنَ النفوسِ وشأفةَ الشنئانِ

أَيُّها رجالَ الندوةِ اجتهِدوا ولا ... تَهِنوا فربُّ الخيبةِ المتواني

وامضوا على غلوائِكُم قُدُماً ولا ... تَخشوا معرَّةَ فاسدي الأَذهانِ [1].

و آخر دعوانا الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سينا محمد وآله وصحبه وسلم.

وكتبه : د. **زين بن محمد بن حسين العيدروس**

المكلا ـ حضرموت ٢٤/شوال/١٣٣٥هـ الموافق ٢٠١٤/٨/١٢م

---

(١) انظر: الوحدة الإسلامية لمحمد الشاطري ٤١ ـ ٤٤.